الهجـــرة

من جنوب الدلتا إلى شمـالها

للاستاذ عبريان سعد

من البلاد ما يزيد سكانه على ما تدر من رزق ، فلا يكون أمام أهلها إلا أحد سبيلين :

إما الرضى بالفقر والراحة ، وإما الضرب فى الأرض حتى يستقروا فى مكان كثير الرزق قليل السكان . وهذا هو الهجرة .

والهجرة إما الى مكان داخل المملكة وإما إلى مكان خارجها ، فإن كان فى المملكة متسع من الأرجاء ينتقل إليه أهل الأماكن المزدحمة فليس ثمة ما يدعو أهل البلاد إلى هجرها إلى مملكة أخرى . وان ضاقت كل الأرجاء بأهلهـا وكانت فى الشعب روح الشجاعة وحب المجازفة وعدم الرضا بالفقر والراحة هاجروا الى أصقاع نائية ؛ والأرض كلها أرض الله .

وقد هاجر الانجليز الى الجزائر النائية ، كلما اكتشفت جزيرة نزح اليها منهم خلق أثروا ثراء عريضا فكان منهم أهل استراليا ونوزيلندا وأمريكا الشمالية . وهاجر من أوروبا خلق كثير نزلوا بأمريكا الجنوبية وجزر كثيرة من جزر الهند الغربية والشرقية ، أصابوا من الثراء فى أوطانهم الجديدة ما أصاب الانجليز .

وهاجر من سوريا ولبنان كثيرون يبلغون الآن مئات الألوف فى كل ناحية من نواحى العالم الذى يجد فيه المهاجر فرصا للعيش وفرصا للثراء .

ونحن الآن فى مصر نواجه مشكلة ازدياد السكان وازدحام بعض المديريات ازدحاما جعل الفقر ينتشر ، ولقد أصلحت الحكومة أراضى فى شمال الدلتا وكان يجب أن يخفف إصلاحها ازدحام المديريات الأخرى ولكن ذلك لم يحصل .

لمـاذا ؟ لأن الأرض المستصلحة يشتريهـا رجال المـال فيستثمرونها برجال معدودين ينقلونهم اليها كلما دعت ضرورة العمل ثم يعيدونهم الى بلادهم التى جلبوهم منها .

فإصلاح الأرض فى شمال الدلتا ، مهما تقدم وعظمت نتائجه سوف لا يكون له أثر فى حل مشكلة زيادة السكان ما دام الحال على ما هو عليه الآن .

ومن العبث أن نطالب فلاحى المنوفية والقليوبيـة وجنوب الشرقية والدقهلية والغربية وهى أشد مناطق القطر زحاما ، من العبث أن نطالبهم بالهجرة ، فلن يهاجروا لمجرد النصيحة أو الطلب رغم علمهم بأن الهجرة هى دواء فقرهم ، لأن الهجرة تحتاج الى مال والى ماشـية

والى بيوت تبنى فى المهاجر ، وفلاحو تلك المناطق المزدحمة لا مال لهم ولا ماشية ولم تبن لهم مساكن يأوون اليها ولم تعرض عليهم أرض يملكونها و يسددون ثمنها الاسمى من جزء من غلتها لا يعجزهم ان يدفعوه .

ولكى ندرك مدى تقصيرنا فى تشجيع الهجرة وترغيب الناس فيها يجب أن نعلم ماذا تصنع المهاجر للمهاجرين . وعندى طرف من حديثها .

فى سنة ١٩٢٨ كان لى صديق يدرس الهندسة البحرية فى انجلترا وأتمها ، ووضع على ظهر سفينة تجارية مساعدا لمهندسيها تمهيدا لمنحه الدبلوم . ومدة تمرينه هذه سنتان .

رحلت به السفينة تجوب بحار العالم ، فزارت كل موانئه تقريبا . وكان من البلاد التى قضت فيها السفينة أياما كثيرة نيوزيلانده .

عاد صاحبى ولقيته ، فحدثنى عن رحلته ، وحدثنى عن اقامته فى نيوزيلاندة ، وحدثنى عن أهلها الذين ربطته بهم صداقة ، وحدثنى عن الحياة هناك . فسألته عن الهجرة ، أهى مباحة ؟ وما مدى المساعدة التى يلقاها المهاجر ، قال إن هناك نقابات شبه حكومية تعطى المهاجر أرضا وآلات للتعبيد والزرع والحرث ، و يعطونه بذورا و يتركونه عامين أحيانا وخمسة أعوام أحيانا لا يحصلون منه ثمن شىء مما أعطوه حتى اذا استقر ودرت الأرض ، بدأ فى سداد ما أعطى .

ولقد رغبت فى الهجرة مع أنى كنت موظفا براتب يغرى أى شاب فى التمسك به ، فأرسلت طلبا لإدارة الهجرة فى لندن فجاءنى رد رقيق ومعه استمارات الهجرة . ولم يحل دون هجرتى إلا شرط لم استوفه ولا سبيل إلى التغلب عليه ، ذلك هو سابق اشتغالى بالسياسة والحكم على بسببها وهم لا يقبلون مهاجرا من هذا الطراز .

لو أننا أردنا تعمير أراضى شمال الدلتا واستغلالها كما أرادت حكومة نيوزيلاندة تعمير أراضيها ، لوجب علينا أن نسير سيرتها ونحذو حذوها . فاذا عمرت تلك الأراضى انحلت مشكلة السكان الزائدين فى المديريات المزدحمة ، لأن هؤلاء السكان هم الذين سيزحون لتعمير تلك الأراضى فنصيب طائرين بحجر واحد .

والفرصة الآن سانحة كأحسن ما تكون الفرص السانحة ، فإن فى مصر من أهل نيوزيلاندة عدد ضخم ، منهم من غير شك كثيرون ممن يشتغلون بالزراعة ولهم اتصال وثيق بالنقابات التى تمد الناس بالمساعدة .

ونستطيع بالاتصال بهؤلاء الناس ، أن نكون فكرة صحيحة عما يتبع هناك ، وأن نقتبس من نظمهم ما يتفق مع حالتنا الاقتصادية والاجتماعية . و إننا لنعلم علم اليقين أن مدى المساعدة هنا سيكون أقل بكثير من مداها هناك ، لاختلاف مستوى المعيشة فى مصر ونيوزيلاندة فالرجل هناك يحتاج للضرورى أو لعيش الكفاف أضعاف ما يحتاج اليه الفلاح المصرى الذى يضرب الرقم القياسى فى العالم فى قلة ما يكفيه من المال ليعيش .

لو أن آلاف الأفدنة بل مئات آلافها التى شقت فى قلبها المصارف بدل أن تباع بأثمان خيالية للشركات وزعت على الأسر التى تشتغل بالزراعة فى المديريات المزدحمة ووزعت على تلك الأسر مساعدات مالية وعينات من البذور والسماد والماشية ، ولو أن قرى بنيت فى تلك المساحات الواسعة لاصبح شمال الدلتا يبارى جنوبها عمرانا وثروة ولأصبح فيه لسكان المديريات المزدحمة متنفس . ولكن كل ما نظفر به ، وصف للزحام وطلب لحل مشكلته ووصف للفقر ومطالبة مقاومته .

إذا كانت الأرض تجد فى نيوزيلاندا مهاجرين من مختلف الممالك لزرعها وتعمير بورها نازحين اليها من كل فج عميق ، أفلا تجد أرض شمال الدلتا فى سكان جنوب الدلتا من يعمرها والمسافة بينهما لا تتجاوز بضع ساعات بالسيارة أو القطار .

مستحيل أن يكون الفلاح المصرى من الانحلال بحيث يأبى أن يهاجر من قرية لقرية أخرى إن ضمن أرضا ومساعدة وإن علم بأن الأرض سيستغلها لنفسه ، وأنها ستكون ملكا له . والدليل على ذلك هجرة أهل القرى المزدحمة من وقت لآخر إلى مزارع الشمال كلما احتاجت مزارع الشمال إلى عمال للزرع أو للحصاد . ولو أن أولئك العمال وجدوا سبيلا الى الاستقرار هناك بزوجاتهم وأولادهم لاستقروا .

سيعترض أصحاب المزارع فى الشمال بأنهم بنوا بيوتا للعمال ولكن العمال يأبون الهجرة وسكنى تلك البيوت . وردى على ذلك أن الهجرة إن لم يكن الدافع لها مطمعا فلا يمكن أن يقبلها إنسان ، وأى الناس يعمل بالأجر فى قريته التى ولد ونشأ بها ثم يهاجر ليعمل بالأجر نفسه فى قرية نائية يكون فيها غريبا ، والغربة نوع من الذل .

ولكن لو أن ذلك العامل علم أنه سيصبح صاحب ملك وأنه سوف يجد مساعدة تيسر له الزرع والحصاد ، إذن لرأينا سيلا جارفا من العمال الأشداء يحول فيافى شمال الدلتا التى تزرع نصف زراعة إلى ارض عامرة منتجة .

لنجرب إنشاء قرية ولنقطع زمامها قطعا صغيرة كل منها ثلاثة أفدنة مثلا ، ولنجعل لكل راغب فى قطعة منها بقرة ، ولنقدم له السماد والبذور على أن يدفع مال الأرض مضاعفا لمدة خمسين سنة ، فإن نجحت القرية وعمرت بالمهاجرين أنشأنا قرية أخرى وهكذا .

لقد أنفقت الحكومة ١٦٠ ألف جنيه إعانة للموظفين المنسيين ، ولها الشكر من غير شك ، ولكن الفلاحين المنسيين وأرض شمال الدلتا التى تنتظر سواعدهم وجلدهم وخبرتهم فى حاجة الى مثل هذا المبلغ ينفق كل عام ، فتنحل مشاكل متعددة لا مشكلة واحدة ، ويكون ذلك بدء عهد ينظر فيه الفلاحون للحكومة نظر الجيش للقائد لا نظر الطير للصائد كما قال الزعيم الخالد سعد يوم ولى الحكومة . لأن الفلاحين تعودوا حتى اليوم أن يدفعوا للحكومة لا أن يقبضوا منها . فاذا جاء اليوم الذى يقبض الفلاح فيه من يد الحكومة مالا أو يتسلم ماشية أوأرضا ، شعر الفلاحون جميعا أن الحكومة منهم فى مكان القائد لا الصائد .

عريان سعد